المغاربة وروح البحر (الأطروحات والإشكالات)

مبارك الحمداني

يستكشف الطاهر قدروي في مقالته بمجلة التسامح المعنونة بـ (المسالك البحرية في المغرب الوسيط خلال القرنين ٥و٦هـ/١١و١٢م) أهم المسالك التي كانت حاضرة بقوة في تكوين صورة المغرب الوسيط تجارياً وثقافياً. حيث يشير في مقدمته إلى أن المسالك البحرية في الحوض الغربي من المتوسط استمرار لتلك التي كانت تربط بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وذلك بالنظر إلى العلاقات التجارية التي كانت تربط بين بلاد المغرب وأوروبا من جهة وبين المغرب، وبلاد السودان من جهة أخرى، فنشطت العديد من الخطوط التجارية البرية والبحرية..

ويسلط قدوري في مقالته الضوء على خطوط التجارة البحرية الرابطة بين المغرب وبلاد السودان على اعتبار أنّ المعلومات والأبحاث والتفصيلات الأركيولوجية التي كتبت عنها تعتبر ضعيفة ونادرة جداً مقارنة بالخطوط التجارية البرية الرابطة بين المغرب وجنوب الصحراء والتي يشير إلى أنّها حظيت باهتمام كبير من قبل ثلة من الباحثين الذين انطلقوا من المادة المصدرية التي توفرها كتب المسالك والجغرافية التي خلفها الجغرافيون والرحالة المسلمون. وعضدوها بأبحاث أركيولوجية، مما مكن من تشكيل صورة واضحة نسبيا عن هذه الطرق..

وفي تقديرنا فإنّه على الصعيد النظري فإن توافر بلاد المغرب على واجهتين بحريتين متمثلتين في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) و البحر المحيط (المحيط الأطلسي) يمكن الباحث الدقيق من الوقوف على بعض ملامح تكوين الثقافة البحرية عند المغاربة في العصور القديمة. وبواعث الإفادة من هذا الإطلالة الممتدة على تلك الواجهتين البحريتين. سواء كانت هذه الإفادة على المستوى المادي المتمثل في الإطعام والنقل أم على المستوى الثقافي المعنوي المتثمل في تشكيل السمات الاجتماعية والنفسية.

إلا أنه وكما تجمع الكثير من الأطروحات النادرة التي ناقشت هذا التكوين للأسف لا نكاد نجد حضورا للبحر وشؤونه في الثقافة المغربية خلال الفترات القديمة والوسيطية، إننا لا نجد ذلك الاحتفاء الذي تقدمه أمهات الكتب حول هذا الشأن سواء أكانت كتبا تاريخية أم كتبا فقهية أم كتبا تراثية إضافة إلى شح المعلومات التي من شأنها أن تمكننا من الوقوف على مدى اهتمام المغاربة بالبحر، ولعل هذه الوضعية كما تشير بعض الأطروحات هي التي دفعت العديد من الباحثين إلى وصف الثقافة المغربية والإنسان المغربي بأنه مرتبط بالبر أكثر من ارتباطه بالبحر، شأنه في ذلك شأن سكان الجزيرة العربية. ومن الباحثين من لا يفرق بين المسلمين ويجعلهم على قدم واحدة بأنهم شعب ارتبط بالصحراء والثقافة البرية، ووصف الناقة والفرس أكثر من اتصالهم بالبحر والسفن.

ويشير قدوري في مقالته إلى أن الدراسات التي أنجزت حول المسالك البحرية في الحوض المتوسطي عامة والجزء الغربي منه خاصة - قليلة جدا- وذلك قياسا بالدراسات التي أنجزت حول المسالك البرية، حيث يصعب تحديد طرق بعينها عدا تلك المسالك التي كانت تحاذي البر في إطار الإبحار الملازم للساحل، أما باقي الخطوط فإما أنها كانت تربط بين ميناءين متقابلين، وإما أنها كانت تربط بين ميناءين أو عدة موانئ بين

ضفتي المتوسط، كما هو الشأن بالنسبة لموانئ إفريقية وبجاية، والمدن الإيطالية.

وهذه المسالك كما يشير الباحث غالبا ما كانت تتخذ من الجزائر الشرقية وصقلية نقطة استراحة للتزود ثم تستأنف الرحلة من جديد، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الخطوط كانت حركتها غير منتظمة، وتخضع في الأساس إلى مجموعة من الشروط منها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو طبيعي، فالرحلة البحرية كانت تتم في أوقات محددة مرتبطة بالظروف العامة للإبحار -هبوب الرياح- هدوء البحر- مما يتلاءم مع الفصل المعتدل الذي تنشط فيه الملاحة، كما أنها - أي الرحلة البحرية- كانت مرتبطة بتوفر البضائع والمسافرين، فهذان العاملان أثرا بشكل كبير في مدى انتظام المسالك البحرية التي كانت تتغير تبعا للتغيرات الفجائية التي تطرأ على الأحوال الجوية ففي كثير من الأحيان كان الربان يضطر إلى تغيير مسار الرحلة أمام اشتداد الرياح وكثرة الأنواء أو السماع بوجود عدو يتهدده.

ثم يشرع قدروي في تبيين أهم المسالك البحرية مستعرضاً إياها من نقطة انطلاقها مروراً بنقاط التوقف وحتى الوصول إلى موانئ خواتيمها. ومفصلاً في ذلك أهم الأحداث والميزات التي يتمتع بها كل مسلك وأهم الأخطار التي تعترضه. ويخلص في ختام هذا التتبع إلى القول بنتيجة أساسية مفادها أن المحاور الصحراوية التي أسهب الباحثون في ذكرها وتفصيل الرحلات التي تسير فيها كانت امتدادا للمحاور البحرية أساساً، معللاً ذلك بأنّ المحاور المارة بالمغرب كانت تنتهي إلى مدينة فاس ومنها إما إلى سبتة أو إلى تلمسان وموانئها هنين لتنطلق بعد ذلك المحاور البحرية إما في اتجاه الأندلس وإما في اتجاه الجزائر الشرقية وإيطاليا، ثم من بجاية نحو ميورقة وإيطاليا، أما الخطوط الصحراوية التي كانت تنتهي إلى موانئ إفريقية فإنها كانت تتجه إما نحو صقلية وإما نحو المشرق العربي، خاصة ميناء الإسكندرية.

وما يعنينا في هذا التعقيب حول الورقة التي قدمها قدروي ليس هو التتبع الجغرافي والتفاصيل التاريخية التي خاض فيها قدوري بقدر ما نلتمس التكوين التاريخي الذي يفيدنا به هذا التعقب والصورة الاجتماعية التي رسمها.

فنحن إن حاولنا طرح وتفكيك موضوع تعامل المغاربة مع البحر، فإننا نجد في مجمل الطرح أن هناك مواقف عدة طرحها الدارسون الغربون كأحكام تجاه المغاربة في تعاطيهم مع البحر فعلى سبيل المثال يرى « L-Brunot» بحسب ما أورده الطاهر قدوري في ورقة أخرى تحمل عنوان «البيئة البحرية في المغرب الوسيط وسبل حمايتها» يرى «أن المغاربة والعرب بصفة عامة تكونت لديهم عقدة الخوف من البحر والمحيط وذلك منذ القديم و معتمده في هذا الزعم بعض الإشارات اللغوية، حيث يرى أن اللغة العربية تطلق كلمة البحر على النهر الكبير والعالم الكبير، كما أن المؤرخين عند تعاملهم مع وصف «المحيط الأطلسي» فإنهم يسمونه تارة بالبحر المظلم وتارة ببحر الظالمات ومرة أخرى بالبحر المحيط، وهو ما يدل على الخوف الشديد الذي تكون عند المغاربة نحو البحر المحيط، وفي موضع آخر يشكل البحر رمزا للعظمة والقوة، ومن ثم لا يجب سبه، ولعل هذا ما طبع الخيال الاجتماعي المغربي فرسم صورة خاصة للبحر المحيط بألوان من التقديس والاحترام، ومن ثم لم يكونوا بحارة كبارا ولا مغامرين بحريين.»

وحين ننقب في الآراء الأخرى التي تناولت نفس القضية بالدرس نجد مهتمين آخرين يرون أن المغاربة وبعقليتهم البدوية، شكل البحر لديهم رعبا كبيرا حتى أنهم نزعوا إلى تقديسه والخوف من ركوبه، فشاع لديهم أن من يركب البحر مفقود ومن ركبه وعاد ناجيا فإنه يكون كمن ولد من جديد.

وهكذا تتعدد الآراء في هذا الصدد ذلك أن الثغرة التاريخية في البحث والتنقيب في هذه المسألة تركت المجال مفتوحاً في تقديرنا لمثل هذه الآراء والتفسيرات والمدارس في الصعود وتشكيل هوية لها لا يمكن سدها إلا بمثل هذه المساهمات التي قدمها قدوري وآخرون حول التنقيب في تاريخية المسالك البحرية للتأكيد على روح البحر الحاضرة في المغرب الوسيط.

mu7k20@gmail.com